الفصل الثالث

أشهر الدعاة من عهد الرسول وما بعده وهديهم فيها

لقد كان المسلمون فى الصدر الأول ، ولا سيما على عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، يهتمون بأمر الدين ، فقد كانت خاصة الصحابة رضى الله عنهم ، الذين عاشروا النبى صلوات الله وسلامه عليه وتلقوا عنه ، متواصلين متكاتفين يشعر كل منهم بما يشعر به الآخر من الحاجة إلى نشر الإسلام وحراسته ، ومقاومة كل ما يمس شيئاً من عقائده وأحكامه وآدابه ، ومصالح أهله . فخطبهم فى التحريض على القتال دعوة إلى الله تعالى ورفع دينه وإعلاء كلمته ونشر دعوته ، وخطبهم فى الحث على الاعتصام بحبل الله وعلى الألفة والأخاء دعوة إلى الله تعالى ، وخطبهم فى الشورى مظهر لفهم الدين ، كل يدلى برأيه ويؤيد دعواه بالقواعد الدينية . والكل كان مرجعه فى هذا كتاب الله وسنة رسوله ، والمبادىء الإسلامية المعلومة من الدين ، وهكذا فى كل أغراضهم كان الدين فيها هو الأساس الذى تقوم عليه دعوتهم إلى الله تعالى ، ذلك أن الدين الحنيف كان هو المسيطر على ضمائرهم ، والقانون الذى إليه يحتكمون ، والشرع الذى على مقتضاه يسيرون ، فى كل ما يأتون وما يذرون ، كما يعلم هذا بالوقوف على خطبهم فى قواد الجيوش ووصاياهم فى عمال الولايات ، ونصائحهم فى جمهور الأمة — وكانت عامتهم من ورائهم يراقبون القائمين بالأعمال العامة ، حتى كان الصعلوك من رعاء الشاء يأمر مثل عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين وينهاه فيما يرى أنه الصواب . ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم ورفعة مقامهم ليسوا بمعصومين — وقد صرح عمر رضى الله عنه بخطئه ورجع عن رأيه غير مرة . وقد كان فى صدر الإسلام وما يليه يتصدر للدعوة والإرشاد فى المساجد العامة والمجتمعات العامة أجلاء العلماء المشهود لهم بالفضل ، وكان يختلف إلى مجالسهم الأمراء والعظماء ، ويتبعهم العدد الكثير من

عامة الأمة ، فكان لهم أحسن الآثار وأعظم الفوائد فى تصحيح العقائد وإصلاح الأعمال ، وتهذيب النفوس ، والإرشاد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

وممن أحرز قصب السبق فى هذا المضمار الحسن البصرى ، وهو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى . كان أبوه يسار من سبى ميسان — بلدة بالعراق — سباه الأمير المغيرة بن شعبة مع سيرين أبى محمد بن سيرين ، حينما افتتحها فى عهد عمر بن الخطاب ، ثم صار يسار هذا مولى لزيد بن ثابت الأنصارى وكانت أم الحسن — وتسمى خيرة — مولاة لأم سلمة زوج النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وفى بيتها ولد الحسن سنة ٢١ هـ . وربما غابت فى حاجة فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجىء أمه ، فدر عليه ثديها فشربه ، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة اللتين عرف بهما كانتا من بركة ذلك . ونشأ الحسن بوادى القرى ، وتلقى الفصاحة عن الأعراب ، وسمع عثمان ، وروى عن عمران ابن حصين وأبى موسى الأشعرى ، وابن عباس ، وجندب وزيد بن ثابت الأنصارى ولما أتم علومه ومعارفه ، وظهرت مخايل النجابة عليه ، عين كاتباً للربيع بن زياد الحارثى والى خراسان ، وأحد فاتحيها لعمر بن الخطاب ، ثم شاع فقه الحسن وفضله وتناقل الخلق ورعه ونبله ، فتقلب فى الأعمال والولايات ، مع انتياب مسجد البصرة يعقد فيه مجلسه ليفقه الناس ويذيع فيهم موعظته وحكمته ، ويبثهم معارفه وفلسفته ، وينشر بينهم دعوته السياسية فى تثبيت دعائم الدولة ، إلى أن اختاره عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لقضاء البصرة سنة ٩٩ هـ . وقال عنه : لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين . وحقاً لقد كان سيد التابعين ، وإمام أهل العلم والحكمة والرأى فى عصره ، وكان من الفصاحة والبلاغة فى أعلى مقام مع الزهد والورع ، والنسك والتقى ، حتى كانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن ، وإنه سيد سمح ، وإنه أخطب الناس وأفصحهم ، وإن علانيته أشبه بسريرته ، وسريرته بعلانيته ، وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، ناهيك من

obeikandi.com

رجل استغنى عما فى أيدى الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما فى يديه من أمر دينهم . قيل ليونس بن عبيد : هل تعرف رجلا يعمل بعمل الحسن البصرى ؟ فقال : رحم الله الحسن ، والله ما أعلم أحداً يقول بقوله ، فكيف يعمل بعمله ، كأن والله إذا ذكرت عنده النار كأنه لم يخلق إلا لها ، وما رؤى قط إلا وكأن النار والجنة بين عينيه ، خشية ورجاء ، لا يغلب أحدهما صاحبه — وسمعته السيدة عائشة رضى الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين ؟ وقيل لعلى ابن الحسن رضى الله عنهما : إن الحسن البصرى يقول : ليس العجب لمن هلك كيف هلك ، وإنما العجب لمن نجا كيف نجا . فقال على : سبحان الله هذا كلام صديق . وروى عن الأعمش أنه كان يقول : ما زال الحسن البصرى يعنى بالحكمة حتى نطق بها . وسمعه آخر وهو يعظ فقال : لله درك إنك لفصيح إذا تلفظت ، ناصح إذا وعظت وكانت مجلس الحسن مجالس الذكر يخلو فيها مع أصحابه وأتباعه من النساك والعباد فى بيته مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى ومحمد بن واسع وفرقد السبخى وعبد الواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصرى . إلى غير ذلك من الصفات التى ألبسه إياها شيوخ عصره . وقد روى أبو حيان التوحيدى وصفاً جامعاً له قال :

كان الحسن بن أبى الحسن البصرى من درارى النجوم علماً وتقوى وزهداً وورعاً وعفة ورقة وتألهاً وتنزها ، وفقهاً ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانياً ، لا قريباً ولا مدانيا ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته — عاش تسعين سنة لم يُقْرَف بمقالة شنعاء ، ولم يُزَنّ بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقى الأديم ، محروس الحريم ، يجمع مجالسه ضروباً من الناس ، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه

الحلال والحرام ، وهذا يجود له المقالة ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة ، وهو فى جميع هذا البحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنيه لائمة فى الله ، ولا تذهله رائمة عن الله . يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير . وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ، ومن ذا يجرى مجراه ؟ ولم يمنع الحسن زهده وورعه ونسكه وتقاه أن يخوض غمار السياسة ، وأن يكون له فيها سهم صائب ، ولسان عاضب ، وأن يكون من دعاة الدولة والذائدين عن كيانها ، الموطدين لدعائمها وأركانها بما أوتى من فصاحة وبيان ، وقوة لسن وافتنان . ومهما أغفل التاريخ من الكلام عن مذهبه السياسى فإن مما لا شك فيه أن الدولة المروانية مدينة له بقوة حكمته وبليغ بيانه . كما هى مدينة للحجاج بقوة سياسته وشدة جنانه وأنت عليم بأثر الدعاية السياسية فى بسط نفوذ الدولة وقيام سلطانها فى الأقطار ، وانبعاث هيبتها فى الصدور . فلما كانت الدولة المروانية قد نشأت فى عصر لا يزال الدين غضاً ، كان لا بد للقائم للدعوة لها من الالتجاء إلى الدين للاستعانة ببعض ما يتصل به من الفكر والآراء والأقيسة ، يشد بها جوانب دعوته السياسية وقد كان ذلك المزيج من السياسية . وقد كان ذلك المزيج من السياسة والدين مذهب الحسن فيما هو بسبيله من هذه الناحية ، من حياته السياسية .

فلولا الحسن وسيف الحجاج ، لوئدت الدولة المروانية فى مهدها ، ألم تر إلى الحسن وقد جلس فى مجلسه وبين يديه صنوف من الناس على اختلاف الملل وفيهم حتى اليهود والنصارى ، يصغى كل منهم إلى أقواله ، وهو يخرج بهم فى أساليب الكلام من باب ويدخل معهم فى كل باب ، ثم يقول لهم فيما يحدثهم به : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الولاة فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، و إن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، و إنما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء ، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع وفى أزمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا يستفتونه فى حلها ، فقال لهم : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : يا رسول الله ألا تسعر لنا ؟ فقال : إن الله هو المسعر ، إن الله هو القابض . إن الله هو الباسط . و إنى والله ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه . بهذا وأمثاله كان يزرع هيبة الملوك والولاة فى صدور الناس ، و بهذا وأمثاله كان يبعث الرضا فى النفوس ، غير مصانع ولا مخادع ولكنه الصدق واليقين والثقة بما يحدث و يقول . ولم يكن يهاب أحداً فى قول الحق مهما علا قدره وعزت شوكته .

لما ولى يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة العراق وخراسان سنة ١٠٣ هـ استدعى ابن هبيرة إليه الحسن ومحمد بن سيرين ، وعامر الشعبى ، فلما حضروا إليه قال لهم : إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة له ، وقد ولانى ماترون فيكتب إلى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون ؟ فاستكان ابن سيرين والشعبى تقيةً ولم يجرؤ واحد منهما على معارضته ، فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وأوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدينه وعباده . فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله . فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فأكبر ابن هبيرة ذلك منه وأجازهم وأضعف جائزته ، فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف انا . وهذا يدل على ما كان له فى الدولة من مكانة وفى النفوس من جلالة .

ومحصل هذا أن الأمير كان يكتب إلى ابن هبيرة كتباً يرى فى تنفيذها معصية الله . فيخاف إن أطاعه غضب الله وإن عصاه لم يأمن سطوته فعرض أمره على هؤلاء فهون الشعبى وابن سيرين عليه الأمر ميلا منهما إلى هوى الأمير . أما الحسن فقد أنكر عليه طاعة الأمير فيما فيه معصية واشتد فى الإنكار . وأن هذا الوالى اتعظ بقوله وانقاد له وأجزل له فى العطاء لشجاعته فى الجهر بالحق كما ترى .

أما مذهبه الاعتقادى فيظهر أنه كان يرى رأى القدرية كأكثر زعماء المعتزلة وأكابرهم . قال أبو الجعد : سمعت الحسن يقول : من زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، كما فى قوله تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » وقال داود بن أبى هند : سمعت الحسن يقول : كل شىء بقضاء الله وقدره إلا المعاصى . وهذا هو بعينه رأى المعتزلة فى القدر — وكانت وفاته بالبصرة سنة ١١٠ هـ رحمه الله . وتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا بشأنه حتى لم تقم صلاة العصر بالجامع فى ذلك اليوم ، وكانت هذه أول مرة وقع فيها هذا الحادث منذ كان الإسلام ، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك . هذا قليل من كثير من مناقبه رحمة الله تعالى عليه .

وأبو إدريس الخولانى عائذ الله بن عبد الله أحد من جمع بين العلم والعمل ، أخذ عن معاذ بن جبل وكثير من الصحابة ، كان واعظ أهل دمشق وقاصهم وقاضيهم قال الزهرى : كان أبو إدريس من فقهاء الشام ، توفى سنة ثمانين — وطاوس بن كيسان اليمانى الجندى من الأبناء سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم ، وكان رأساً فى العلم والعمل والوعظ ، قال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاوس . وقال الذهبى : كان طاوس شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقيههم ، له جلالة عظيمة ، وكان جريئاً فى وعظ الملوك والأمراء ، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة .

وعمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهمدانى المرحبى الكوفى وكان يكنى أبا ذر

وهو ثقة فى الحديث ، روى له البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . ووالده أبا ذر بن عبد الله يكنى أبا عمر ثقة أيضاً من أقران النخعى وسعيد بن جبير روى له الجماعة . كان عمر هذا قاصاً بليغاً مؤثراً إذا وعظ بكى وأبكى الناس . قال ابن السماك : لما دفن عمر ابنه ذر وقف على قبره فبكى . وقال : اللهم إنى أشهدك أنى قد تصدقت بما تثيبنى عليه من مصيبتى فيه عليه . فأبكى من حضر ، ثم قال : شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، ثم ولى وهو يقول : انطلقنا وتركناك ، ولو أقمنا ما نفعناك ، ولكن أستودعك أرحم الراحمين . مات سنة ثلاث وخمسين ومائة رحمة الله عليه .

وابن السماك وهو أبو العباس محمد بن صبيح مولى بنى عجل المعروف بابن السماك القاص الكوفى ، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ جمع كلامه وحفظ ، ولقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم ، مثل هشام بن عروة والأعمش . وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره . قدم بغداد زمن هارون الرشيد ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ثلاث وثمانين ومائة ، ومن كلامه : خف الله كأنك لم تطعه ، وأرج الله كأنك لم تعصه . ومنه : من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . ومنه أيضاً : خير الإخوان أقلهم مصانعة فى النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبة ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف السلطان ، مالا يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها على الورع ، وإنما يختبر ذل الرجال عند الفاقة والحاجة ، وأخباره ومواعظه كثيرة .

وسفيان الثورى وهو أبو عبد الله سفيان بن سعد الثورى الكوفى كان إماما فى الحديث وغيره ، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وتقاه وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين والهداة المرشدين ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ، ورغبهم فى ثوابه ويحذرهم من عقابه . وكان الناس يختلفون إليه للانتفاع به فى

دينهم ودنياهم ، وله مع الأمراء مواقف مشهودة كما سيأتى . توفى رحمه الله بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة . وثورى نسبة إلى ثور بن عبد مناة من أجداده .

وابن سمعون وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل الواعظ البغدادى المعروف بابن سمعون ، كان وحيد دهره فى الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ولطف العبارة ، وكان لأهل العراق فيه اعتقاد عظيم ، وتعلق شديد . توفى رحمه الله ببغداد سنة سبع وثمانين وثلثمائة .

وشذْيلةَ الواعظ ، وهو أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك بن منصور الجيلانى المعروف بشذْيلة الفقيه الشافعي الواعظ ، كان فقيها فاضلا واعظاً ماهراً . فصيح اللسان حلو العبارة ، كثير المحفوظات ، صنف فى الفقه وأصول الدين والوعظ . توفى رحمه الله ببغداد سنة أربع وتسعين وأربعمائة — وشذيلة — بفتح فسكون ففتح الياء واللام — لقب له .

والامام ابن الجوزى عالم الآفاق وواعظ العراق ، وهو أبو الفرج عبد الرحمن ابن على بن محمد الجوزى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ . كان علامة عصره وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ . صنف فى فنون عديدة ، وله فى الوعظ المؤلفات المفيدة ومحاسنه يطول شرحها . وسيأتى بيان طريقته فى نشر الدعوة . توفى رحمه الله عليه ببغداد سنة سبع وتسعين وخمسمائة . والجوزى نسبة إلى فرضة الجوز موضع مشهور .

هؤلاء الذين سميناهم أجل الذين كانوا يروون الحديث ويفتون الناس ويدعونهم إلى الخير . وأمثال هؤلاء ممن برعوا فى الدعوة إلى الله وإرشاد العباد إلى الحق . وسنقف إن شاء الله تعالى على شىء من مواعظ هؤلاء الأجلاء ومواقفهم لدى الأمراء .

هديهم فيها

والكثير منهم كان يسلك فى دعوة الناس وهدايتهم طريق الكتاب والسنة ، وبعضهم كان كثيراً ما يستعين فى التذكير بضرب الأمثال وقصص الأولين ،

سيراً على نهج القرآن الحكيم استرعاء للسامعين . وقد غلب ذلك على هذا البعض حتى عرفوا باسم القصاص ، وحتى استسهله طائفة من الدخلاء واسترسل فيه إلى أن نسى معه المقصود الأسمى من الإرشاد ، فكان بعض من أوتى ذلاقة فى اللسان وقوة فى البيان يعتمد على هذا الطريق ، ويتصدى للوعظ مع قلة بضاعته العلمية وعدم تمكنه فى الحقائق الدينية ، فيختلس من العامة إجلالا وتعظيما لاحق له فيه . وكان ذلك يثير عليه من معارضة المنافسين له مايكشف خبيئته ، ويبين غور مقدرته بل كان منهم من يفتضح أمره ويظهر جهله .

وكان عاقبة هذا التنافس انصراف كثير من كبار العلماء عن التصدى إلى إرشاد الناس ، وعكفوا على تحقيق المسائل العلمية ، قانعين بما كانوا يجدون من اللذة العقلية فى الوقوف على دقائق العلوم ، مكتفين بمن يعرف فضلهم ويغترف من بحار علمهم ، بقلوب سليمة ورغبة صادقة من خواص الطلاب ، فأصبح العلم صناعة محصورة بين طبقة خاصة ، وتركوا جمهور الأمة لمن يتصدى لإرشادهم من ذوى البضاعة المزجاة ، وياليتهم مع هذا أحسنوا العمل وأخلصوا فى القيام بهذه الوظيفة الخطيرة ، بل قاموا يريدون بها الارتزاق . فجرّ ذلك إلى سقوط المنزلة وانحطاط القيمة وانصراف الناس عنهم وضياع روح التأثير والانتفاع . ومن هنا أفلت العامة من أيدى العلماء ، وترفع السادة العلماء عن مخالطتهم ، وأصبح الفريقان يتلاومون ويتناكرون ، فهؤلاء يقولون : مابال الناس قد ثقل عليهم أمر الدين وانصرفت نفوسهم عن الهدى والرشد ! ؟ وأولئك يقولون : أين العلماء العاملون يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؟ أين حماة الدين يصلحون الفاسد ويقوّمون المعوجّ — وزاد الخرق اتساعا بميل الأمراء والحكام إلى إقصاء ذوى الغيرة من العلماء فرارا من قيودهم الضيقة « فى زعمهم » ولكيلا يزاحموهم فى المكانة التى استأثروا بها ، فأبعدوا المخلصين الصادقين فى التمسك بالدين ، وقربوا المتزلفين المتساهلين المسهلين لهم رغائبهم ، المسارعين إلى هواهم ، فزاد هذا

فى انزواء العلماء العاملين منكبين على ممارسة العلوم ، منهمكين فى أنواع العبادة ، واجدين لذلك من اللذة الروحية ماأنساهم زخرف هذه الحياة ، وشغلهم عن التعلق بحطام الدنيا ، حتى استلانوا ما استوعره المترفون . وأنسوا بما استوحشه المنعمون . قال قائلهم : « نحن فى لذة لو علمتها الملوك لجادلونا عليها بالسيوف » .

ولقد كان الاقبال على الدعاة والتعلق بالمرشدين موجوداً فى كل عصر ، على قلته وعدم وفائه بحاجة الأمة ، وكان الناس يعززون العلماء ويوقرونهم ويقرون لهم بمنزلة خاصة لما يعرفون لهم من علم وعمل ، ويعتقدون فيهم أنهم حفظة الدين وحراسه — ولازال أمر الإرشاد يتراجع إلى الوراء حتى لم يبق منه اليوم إلا اسمه ، ولم يعرف منه الآن إلا رسمه ، والأمة تتدهور فى أخلاقها وتتأخر فى معلوماتها ، حتى ضلت سواء السبيل ، وجارت من حيث لاتدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى . وتاهت فى تيه الهوى . وتردت فى مهاوى الردى . وأصبح المعروف منكراً ، وصار المنكر معروفا . كل ذلك من سكوت رجال الدين وتساهل الأمراء وإهمال الحكام فى تنفيذ أوامر الدين ، إلا من رحم الله .

ولو أن رجال الدين وجهوا شطراً من عنايتهم إلى النظر فى أمراض الأمة وساروا فى العمل على مداواتها بحزم وحكمة ، لكانت الأمة اليوم صحيحة فى عقائدها ، صالحة فى أعمالها . قويمة فى عاداتها . متينة فى أخلاقها . بصيرة فى أمر دينها . سليمة من الزلل . بعيدة عن مواقع الخطر . وإذا كانت علل تدهور الأمة فى آدابها وتأخرها فى أمر دينها إنما نشأت من إغفال تعليمها وتهذيبها ، وإهمال إرشادها إلى الخير وتحذيرها من الشر ، فسبيلُ إنقاذها من سقطتها وخلاصها من ورطتها بيِّن واضحٌ ، وسهل قريب — وهو أن يبصر السادة العلماء هذا الخطر المحدق بالأمة ويدركوه كما هو ، ثم ينشطوا فى الدعوة إلى الخير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويغرسون الفضيلة فى نفوس الأمة ، خصوصاً الناشئة من أبنائها وبناتها — فهذا وحده هو سبيل سعادتها وفلاحها إذا أحببنا أن نكون

من السعداء المفلحين . وهذا — دون سواه — طريق خلاصها من الشقاء ونكد العيش إن رغبنا أن نكون سادة آمنين .

ولا يغنى رجالَ الدين عذراً عند الله أو عند الناس أن يلقوا كل التبعة على ولاة الأمور إذا هم لم ينصروا الدين . أو على الأغنياء إذا هم قبضوا أيديهم عن المساعدة بالمال أو الجاه . أو على الفاجرين والملحدين إذا هم تمدوا حدود الأدب مع الله ، وتمردوا على شرع الله . فقد علَّمهم الله كيف يدعون إلى الخير ، وعلَّمهم أن العلم النافع متى اقترن بالإخلاص لابد أن يحدث فى القلوب (ولو قاسية) والنفوس الغافلة (ولو طاغية) أثرا لا يستهان به . وعلمهم أن الحق لابد ظافر منصور وإن قل أهله ، وأن الباطل لا يثبت فى وجه الحق أبداً وإن كثرت أشياعه وأنصاره . قال الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه « لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق » .

أى لا بقاء للباطل إلا فى غفلة الحق عنه ، كالنبات الخبيث فى الأرض الطيبة ينبت بإهمالها ، وينمو بإغفالها ، فإذا وجه الزارع إليها عنايته غلبه الخصب وذهب به النبات النافع .

وقال بعض الحكماء قليل الحق يدفع كثير الباطل كما أن قليل النار يُحرِق كثير الحطب .

واجب العلماء

لا يظلم السادة العلماء من يقول لهم : أنتم ورثة الأنبياء فى العلم والحكمة ، وخالف لهم فى وظيفتهم ، وما كان من طريقتهم أن ينزووا فى مساجدهم ، ويلزموا أماكنهم ويُلزموا الناس أن يقبلوا عليهم بل كانوا يتعرضون لهم ويسعون وراءهم يدعونهم إلى الخير ، ويرشدونهم إلى طرق الهدى والرشد بالجد والجهد ، بل جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كان محفوفاً بالمكاره والمخاوف ، وكم قتل

obeikandi.com

فى سبيل ذلك منهم نبى وصديق ، فكانوا أفضل الشهداء . روى أبو داود فى سننه عن أبى سعيد مرفوعاً « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » وقد ورد أن علماء السلف تصدوا لنصيحة الملوك والأمراء الظالمين على ماسيأتى إن شاء الله .

لايظلم العلماء من يقول لهم قوموا بواجبكم وأدوا الأمانة التى فى أعناقكم إلى أهلها ، بعد إيمانهم بقول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) و بعد قول الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا[1] قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) و بعد قول إمام المرشدين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه : « والذى نفسى بيده لتأمُرن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه . ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال حديث حسن . و بعد قول سيد الداعين إلى الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً » رواه مسلم . و بعد قول أمير المؤمنين علىّ كرّم الله وجهه : ما آتى الله تعالى عالماً علما إلا أخذ عليه الميثاق لا يكتمه . وقوله كرّم الله وجهه : ماأخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا .

لايمس كرامة السادة العلماء من يصوب نحوهم سهام اللوم فى تخليهم عن إرشاد الأمة حتى غلبهم عليه الدخلاء ، وبرز فيه الأدعياء ، ممن لايحسنون تهذيب الأخلاق ، وتثقيف العقول ، وهداية الناس ، بل هو محتاج إلى أن يهدى لتصحيح عقائده و إحكام دينه ، و إصلاح نفسه .

لايمس كرامة العلماء من يقول لهم : أنتم رعاة الأمة فى تصحيح عقائدها وصيانة دينها وكل راع مسئول عن رعيته .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة   ونام عنها تولى رعيها الأسد

---

(١) الإنذار الإعلام بالخوف للاحتراز عنه وكل منذر معلم ولا عكس والمراد التعليم والإرشاد .

أجل فقد تصدر لقيادة الجمهور غير الأكفاء . وألو الأهواء . وتمادوا فى باطلهم حين تخلى رجال الدين عن واجبهم . وتنحوا عن وظيفتهم . فكانت العاقبة ماترى مما يحتاج إلى أزمنة طويلة . وجهود عظيمة ، يقوم بها جمع عظيم من أولى الغيرة على الدين وذوى الشجاعة فى إعلاء كلمة الله ، والدعوة إلى طاعة الله بعد إحكام العدة والحصول على كامل الذخيرة والخبرة التامة بأساليب الاقناع ووسائل التأثير ، مع صدق النية والإخلاص فى العمل ، والتحلى بالرفق والتجمل باللين وسعة الصدر .

فهذا هو سبيل الحكمة لايضل من سلكه . ولا يزل من تمسك به . فإنه نعم السبيل الذى يوصل إلى الغاية المقصودة ، والطريق القويم الذى يرشد إلى الضالة المنشودة . قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفصل الرابع

فى الوعظ والإرشاد

تعريفه : اعلم أن لهذا الفن ثلاثة أسماء : وعظ . وتذكير . وقَصص . فالوعظ والموعظة والعظة النصح والتذكير بالعواقب سواء كان بالاستمالة والترغيب ، أم بالزجر والترهيب . قال ابن سيده : هو تذكيرك الإنسان بما يُلين قلبه من ثواب وعقاب . يقال وعظته فاتعظ إذا أثرت فيه الموعظة وأفادت .

وفى الاصطلاح يطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة . ويزيد النفوس المهذبة إيمانا وهداية .

والتذكير : تعريف الخلق نعم الله عز وجل عليهم ، وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته .

والتذكر يقال على الاتعاظ ومنه قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » وقوله « سيذكّر من يخشى » ومثله الادكار « فهل من مدكر » .

obeikandi.com